

المعنى ومستوياته عند محمد أبي زهرة في كتابه المعجزة الكبرى
*The meaning and its levels according to Muhammad Abi Zahra
 through his book "EL-moazija EL-kobra"*

الطاهر عفيف¹

جامعة قالمة

afif.tahar@univ-guelma.dz

تاريخ الوصول 2023/04/21 القبول 2023/07/30 النشر على الخط 2024/01/15
 Received 21/04/2023 Accepted 30/07/2023 Published online 15/01/2024

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن مفهوم المعنى ومستوياته في كتاب " المعجزة الكبرى " لمحمد أبي زهرة، وعلاقة هذه المستويات بالإعجاز القرآني، وقد توصل البحث إلى أن مفهوم المعنى وعناصره عند أبي زهرة لا يختلف عما توصل إليه البلاغيون والنقاد السابقون، وعليه فإن بحوثهم يمكن أن تكون منطلقا لإرساء معالم نظرية لسانية عربية.

الكلمات المفتاحية: محمد أبو زهرة، المعجزة الكبرى، المعنى

Abstract:

This study aims to reveal the concept of meaning and its levels in the book "EL-moazija EL-kobra" by Muhammad Abi Zahra, and the relationship of these levels to the Qur'anic miracle. Be a starting point for establishing the parameters of an Arabic linguistic theory

Keywords: (Muhammad Abou Zahra, EL-moazija EL-kobra, Meaning).

البريد الإلكتروني afif.tahar@univ-guelma.dz

¹ - المؤلف المراسل: الطاهر عفيف

1. مقدمة:

لقد نال القرآن الكريم منذ نزوله إلى اليوم حظوة منقطعة النظير؛ فقد خصه العلماء بالتفسير والدراسة والبحث، فهذا بحث في لغة القرآن وأسرار بلاغته، وذلك بحث في تاريخ القرآن وموضوعاته، والآخر يستنبط أحكامه وحكمه.

تعد قضية الإعجاز القرآني من أكثر القضايا التي شغلت الدارسين قديما وحديثا، باعتبارها قضية مركزية تأسست في حضنها العديد من العلوم والفنون الأخرى، مثل البلاغة والنقد والتفسير وعلم الدلالة، هذا الأخير يعرفه كثير من الدارسين بأنه: " العلم الذي يدرس المعنى، أو هو علم دراسة المعنى"¹

وقد استرعى المعنى اهتمام كل الباحثين في حقل الدراسات اللغوية، وكل ماله علاقة باللغة، باعتبارها نشاطا فكريا إنسانيا متجددا؛ فكلما تطور الإنسان تطورت لغته؛ ومن ثم تطورت معانيها، واحتاج لآليات لفهم وتأويل هذه اللغة، ولهذا فإن المتتبع لقضية المعنى يلحظ أنها قضية قديمة قدم الفكر الإنساني؛ حيث تحدث أفلاطون عن ذلك مرجحا كفة اللفظ عن المعنى.²

أما عند اللغويين والمفسرين العرب؛ فيرجع الاهتمام بما تعلقها بالنص القرآني، وآليات فهمه وتفسيره، من هنا جاء هذا البحث لاستجلاء مفهوم المعنى عند أحد المهتمين المحدثين بالنص القرآني، وهو محمد أبو زهرة من خلال كتابه "المعجزة الكبرى"، فما مفهوم المعنى عنده؟ وما أبرز مستوياته؟

للإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها اعتمد البحث على المنهج الوصفي؛ كونه الأنسب لسبر أغوار مثل هذه الموضوعات، مركزا على جملة من النقاط، وهي: مفهوم المعنى، ومحاولة استجلاء مفهومه عند محمد أبي زهرة، ثم رصد أبرز مستويات المعنى الواردة في كتابه.

2- حول المؤلف والمؤلف

1.2 التعريف بمحمد أبي زهرة:

ولد محمد أحمد مصطفى أبو زهرة سنة 1998م الموافق لـ 1316هـ في المحلة الكبرى، إحدى مدن محافظة طنطا بجمهورية مصر العربية³، حفظ القرآن بأحد كتاتيب قريته، ثم التحق بالجامع الأحمدي في طنطا، حيث درس فيه مدة ثلاث سنوات، ثم انتسب بعدها إلى مدرسة القضاء الشرعي، وظل فيها مدة 08 سنوات

حتى نال درجة العالمية في القضاء الشرعي⁴، شغل مناصب عديدة نذكر منها:

- مدرس للعلوم الشرعية والعربية في كليتي دار العلوم وأصول الدين بجامعة الأزهر والحقوق بجامعة القاهرة.

- أستاذ محاضر للدراسات العليا بالجامعة، عام 1935 وعضو المجلس الأعلى للبحوث العلمية، ورئيس قسم الشريعة، ووكيل كلية الحقوق ومعهد الدراسات الإسلامية¹

¹ أحمد مختار عمر، علم الدلالة، عالم الكتب، ط5، 1998، ص11.

² ينظر: شكري عزيز ماضي، في نظرية الأدب، دار المنتخب العربي، بيروت، ط1، 1993، ص18.

: إسلام ويب الشيخ محمد أبو زهرة، الحق على لسان رجل 2000/10/22 ينظر <https://www.islamweb.net/ar/article>

⁴ ينظر: سارة سعد، سيرة حياة الشيخ محمد أبو زهرة وأهم صفاته ومؤلفاته، مجلة بيان الإلكترونية 2022 /06/19

<https://tipyan.com/biography-of-muhammad-abu-zahra>

فقد جمع بين عدة تخصصات، وهي العلوم الشرعية، علوم العربية، والحقوق، وهذه الدراسات لها علاقة ببعضها، ففهم النصوص الشرعية، واستنباط الأحكام منها يحتاج إلى الدراية الكافية بعلوم العربية، كما تعدّ الشريعة مصدرا لكثير من القواعد القانونية في الدول الإسلامية، وهذا يدل على سعة إطلاع الشيخ أبي زهرة، وتبحره المعرفي ومُكنته العلمية، وهذا ما تؤكدته مؤلفاته المختلفة والمتنوعة.

ترك الشيخ العديد من المؤلفات المتنوعة نذكر منها:

محاضرات في تاريخ المذاهب الإسلامية، محاضرات في النصرانية، خاتم النبيين، الأحوال الشخصية وأصول الفقه، العلاقات الدولية في الإسلام، تاريخ الجدل في الإسلام، موسوعة الفقه الإسلامي، التكافل الاجتماعي في الإسلام²، وكتاب المعجزة الكبرى، ناهيك عن المحاضرات التي كان يلقيها بالمساجد.

كان الشيخ أبا زهرة متقد البصيرة قوي الحجّة، جريئا في الصدع بالحق، لا يخاف في الله لومة لائم، حتى رأى البعض أنه جدير بأن يحمل لقب "عالم العصر"، وفي ذلك يقول رجب بيومي: "كان الرجل جديرا بأن يحمل لقب (عالم العصر)، إذ كان مفرغ أهل العلم في كل مشكلة تعنّ، وكان له من رسوخ القدم ونفوذ البصيرة، وقوة الحجّة ما يجعل أشد الناس معارضة له، كمن يكبرون فقهه ويجلون اتجاهه"³.

يستخلص من هذا الكلام أن الرجل كان قامة علمية سامقة، مشهود له بالعلم والنبوغ من طرف علماء عصره، متبحرا في علوم اللغة العربية، وهذا ما أكسبه قوة الإقناع و التأثير في معارضيه بسهولة و يسر.

2.2 التعريف بكتاب المعجزة الكبرى

يعد كتاب " المعجزة الكبرى، القرآن - نزوله - كتابته - جمعه - إعجازه - جدله - علومه - تفسيره - حكم الغناء به " من أنفس الكتب التي كتبها محمد أبو زهرة في العصر الحديث .

يقع الكتاب في ستمائة وخمس وأربعين صفحة من الحجم المتوسط، وقد أشار صاحبه في عنوانه - من خلال العناوين الجزئية- إلى الموضوعات التي سيعالجها، مفصلا ذلك في مقدمة الكتاب، وهي:

- نزول القرآن الكريم منجما، والحكمة من ذلك، والظروف المحيطة بالتنزيل، وتسوير القرآن الكريم.

- الأحرف السبعة، وقراءاته ونزوله.

- إعجاز القرآن ووجوهه، وعلم الكتاب، وتفسير القرآن ومناهج التفسير.

- الغناء بالقرآن وحكمه، والفروق بين الغناء والتغني⁴.

¹ علي بن نايف السحود، مشاهير أعلام المسلمين، وثيقة إلكترونية، ص 16938.133 Islamway.net/book/

² علي بن نايف السحود، مشاهير أعلام المسلمين، وثيقة إلكترونية، ص 133.

³ محمد رجب بيومي، النهضة الإسلامية في سر أعلامها دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط1، ج2، 1995، ص 275.

⁴ ينظر: محمد أبو زهرة، المعجزة الكبرى، دار الفكر العربي، القاهرة، دط، دت، ص5-6.

كما تحدث عن الأسباب التي دعت له لتأليف هذا الكتاب، فبعد أن ألف كتابا في السيرة النبوية " خاتم النبيين " ارتأى أن يعرّف بهذه المعجزة التي تحدى بها الرسول صلى الله عليه وسلم قريشا، وسائر العرب، ثم تطرق إلى جملة من الصعوبات التي واجهته أثناء تأليف الكتاب، وهي مرضه ومرض زوجته، لكن ذلك لم يثنه عن مواصلة التأليف. والملاحظ أن المقدمة تفتقر لعدد من العناصر المنهجية، مثل منهج البحث، والأهداف، إلا أن ذلك لا ينقص من قيمة الكتاب؛ لأن أغراض التأليف معرفية بالدرجة الأولى، حيث ركز المؤلف على جمع المادة العلمية، وترتيبها ومناقشة ما يستوجب المناقشة .

3 مفهوم المعنى

1.3 لغة

جاء في معجم مقاييس اللغة لابن فارس أن: " العين والنون والحرف المعتل أصول ثلاثة، الأول القصد للشيء بانكماش فيه وحرص عليه، والثاني دال على خضوع وذل، والثالث ظهور الشيء وبروزه"¹، وهو مأخوذ من الفعل (عنى)، فنقول عنى به الأمر عنيا نزل، والشيء أبداه وأظهره، وعنيا وعناية أرادته وقصده.² فالواضح أن مادة عنى تدل على القصد، والوضوح والظهور؛ أي أن المعنى لا يأتي هكذا اعتبارا، وإنما يقصده صاحبه ويريده.

2.3 اصطلاحا

عرفه علي بن عبد العزيز الجرجاني بقوله: " المعاني هي الصور الذهنية من حيث إنه وضع بإزائها الألفاظ والصور الحاصلة في العقل، فمن حيث إنها تقصد باللفظ سميت معنى، ومن حيث إنها تحصل من اللفظ في العقل سميت مفهوما، ومن حيث إنه مَقول في جواب ما هو سميت ماهية، ومن حيث ثبوته في الخارج سميت حقيقة، ومن حيث امتيازها عن الأعيان سميت هوية"³. إذن فقد نظر الجرجاني إلى المعنى باعتبارها مختلفة ومتعددة، فباعتبار المتكلم هو القصد؛ أي الصورة الذهنية، وباعتبار المتلقي هو ما نفهمه، وهنا يسمى المفهوم، ومن حيث كونه جوابا يسمى ماهية، وباعتبار مطابقة الواقع يسمى حقيقة؛ فمصطلح المعنى يتغير حسب سياق الكلام، وهذا يفسره منطلقات الدارسين في النظر للمعنى، فالنقاد مثلا نظروا إليه في ضوء استحضر ثنائية اللفظ والمعنى، وأفضلية أحدهما على الآخر، أما الفلاسفة فقد نظروا إليه مستحضرين اللغة والفكر، وأسبغية أحدهما على الآخر، أما اللغويون فقد فرقوا بينه وبين الدلالة، كما قسموه إلى معنى خاص بالألفاظ وآخر بالعبارات.⁴

¹ أحمد بن فارس، مقاييس اللغة، ت ع السلام هارون، دار الفكر، دمشق، ط1، 1997، ج4، ص 146.

² إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ومكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط4، 2004، ص 633

³ علي بن عبد العزيز الجرجاني، معجم التعريفات، ت محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، دط، ص 184-185.

⁴ ينظر: عزمي إسلام، مفهوم المعنى دراسة تحليلية، حوليات جامعة الكويت، ع6، 1985، ص 25.

وهنا نلاحظ أنه لا يوجد اختلاف كبير بين الدارسين العرب القدامى والمحدثين في النظر للمعنى، باستثناء بعض الإضافات بتأثير من المناهج اللسانية المعاصرة، مثلما يتعلق بالمصطلحات فالمعنى يقابله مصطلح المدلول عند سوسير Ferdinand de Saussure)، والذي يتحد مع الدال (اللفظ) لتأليف العلامة اللغوية¹.

وإذا كان هناك شبه اتفاق حول المفهوم، فإن ثمة اختلافًا في طرق صياغة المعنى ومستوياته، وآليات إنتاجه وتفسيره؛ نظرا لتطور اللغة الإنسانية وتطور حاجات المجتمع وثقافته.

4. المعنى في كتاب المعجزة الكبرى لمحمد أبي زهرة

يعد محمد أبو زهرة واحدا من الباحثين المحدثين الذين بحثوا المعنى بجميع مستوياته في كتابه " المعجزة الكبرى"، وتبدو عنايته به من مقدمة الكتاب التي أشار فيها إلى أن القرآن الكريم نزل على النبي صلى الله عليه وسلم باللفظ والمعنى والقراءة، مفندا الرأي القائل إن القرآن نزل بالمعنى فقط، وفي ذلك يقول: إن هناك رأيا يقول إن القرآن نزل على قلب النبي عليه السلام بالمعنى، واللفظ للنبي، ونسوا قوله تعالى معلما للنبي عليه السلام القراءة والنطق بما: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۚ 16 إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۗ 17 فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۗ 18 ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيِّنَاتَهُ ۗ 19 ﴾ [القيامة: 16-19]، فإن ذلك صريح في أن القرآن نزل على النبي عليه السلام باللفظ والمعنى والقراءة وإن ذلك عليه اجتماع المسلمين والعلم به علم ضروري، ومن يخالفه يخرج من إطار الإسلام².

فقد انطلق في حديثه عن الإعجاز من ثنائية اللفظ والمعنى التي تعد إحدى القضايا الكبرى في النقد والبلاغة، فهناك من يربط جودة العمل الأدبي باللفظ، ولهذا وجب الاهتمام به وجعله هدفا منشودا، بينما يرى آخرون أن الأولوية للمعنى؛ لأن اللفظ يتبع المعنى، بينما ساوى آخرون بينهما - اللفظ والمعنى - معتبرين إياهما أساس البلاغة.

وقد اكتسبت هذه القضية أهميتها من ارتباطها بموضوع الإعجاز القرآني الذي عكف عليه العلماء يبحثونه من جميع جوانبه، وقد انقسم العلماء بخصوص ارتباطه بقضية اللفظ والمعنى إلى فريقين: فريق يرى أن إعجاز القرآن راجع إلى جمال ألفاظه وحسن صياغتها و تآلف عناصرها، وفريق رأى أن إعجاز القرآن في معانيه وأفكاره، والقرآن إنما أعجز العرب بروعة معانيه³.

وهنا نلاحظ أن محمد أبا زهرة يرى أن الإعجاز يتحقق بالأمرين اللفظ والمعنى مع القراءة؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي رتل القرآن مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ [الفرقان: 32] ، كما ذكر في موضع آخر أن القرآن هو اللفظ والمعنى، فليس المعنى وحده يعد قرآنا؛ لأن التحدي كان باللفظ والمعنى ، ثم إن ترجمة القرآن تقع بالمعنى فقط، فلو صلى أحدهم بما ترجم من القرآن لم تصح به الصلاة، فالمعنى عند محمد أبي زهرة هو ما يفهم من اللفظ (المعنى)، والذي يكون مشتركا بين العديد من الأمم بخلاف اللفظ حيث لكل أمة ألفاظها الخاصة بها .

¹ ينظر: وليد قصاب، مناهج النقد المعاصر، دار الفكر، دمشق، ط1، 2007، ص 131.

² محمد أبو زهرة، المعجزة الكبرى، ص 05.

² ينظر: حمزة بوخرنة، رأي علماء الإسلام في الإعجاز من خلال ثنائية اللفظ والمعنى، مجلة البحوث والدراسات، ع 23، 2017، ص 44.

5- مستويات المعنى في كتاب المعجزة الكبرى

لقد بحث أبو زهرة المسائل اللغوية في القرآن الكريم وفق عدة مستويات، مستوى الصوت ومستوى الحروف، ومستوى الألفاظ ومستوى الجمل والعبارات، "فالكلمة تتشكل من الحروف، والجمل تتشكل من الكلمات، ولا يتضح المعنى إلا في مستوى الكلمات ومستوى الجمل، وبذلك فإن للمعاني مستويين، معاني الكلمات ومعاني الجمل"¹، فقد أهمل كثير من الدارسين الحديث عن دور الصوت في تحديد المعنى، لاعتقادهم أن الأصوات لا تحمل معاني في ذاتها، بل تشترك فيه عدة عوامل، لعل أشهرها الظروف التي تحيط بالكلام، وهو ما يعرف بسياق الحال Context of Situation، وهذا الرأي يتفق كثيرا مع الواقع اللغوي لكثير من اللغات، غير أن لغويي العربية وهم يتفحصونها وجدوا فيها عدة خصائص لا توجد في كثير من اللغات التي عرفوها"²

هذه الخصائص تتجلى في العديد من الظواهر الصوتية، مثل النبر والتنغيم والإعراب "واستيعاب أصواتها لجملة الجهاز المعروف بجهاز النطق؛ إذ أن الأصوات موزعة عليه وفق نظام غاية في الإحكام"³، بحيث تكون على نسج معين لتشكل كلاما مفيدا، هذا النسج يتجلى أكثر في القرآن الكريم، فيتخذ صورا عديدة من "التشكل أو البناء الصوتي، سواء كان ذلك في كلماته، أو جملة أو آياته، أو على مستوى إيقاع السورة بأكملها، ومدى ملاءمة ذلك واتساقه وانسجامه مع المعاني، والمطابقة العجيبة التي يمكن أن تحدث في كلام البشر الدرجة من التطابق والتناسب لمعاني الكلام"⁴، فالمستوى الصوتي له دور كبير في تحديد المعنى وتوجيهه، لاسيما في القرآن الكريم، بل إن كثيرا من الدارسين القدامى والمحدثين بحثوا في الإعجاز الصوتي معتبرين إياه وجها من وجوه إعجاز القرآن الكريم، وسنحاول فيما يلي رصد مستويات المعنى في كتاب المعجزة الكبرى لمحمد أبي زهرة:

1.5 مستوى الصوت

تطرق محمد أبو زهرة في كتابه "المعجزة الكبرى" إلى أهمية الأصوات في تصوير المعاني القرآنية، ويظهر ذلك في عدة مواضع منها: القراءات القرآنية، حيث ذكر أن القرآن يُقرأ بقراءات مختلفة؛ في حركات أو أواخر الكلمات، أو في بناء الكلمة، أو في الوقوف في أواخر الكلمات، أو في الهمزات قطعاً ووصلاً، كهزمة الأرض، فهي تقرأ موصولة ومقطوعة...⁵

هذا يعني أن قراءة القرآن الكريم تختلف من قارئ لآخر، ووفقاً للقراءات القرآنية المتواترة، وقد أشار أبو زهرة في الفقرة السابقة إلى مجموعة من الظواهر الصوتية التي تحيل على معاني مختلفة، كما أن تغير هذه الظواهر من آية إلى أخرى تدل على الإعجاز الصوتي للقرآن، فالوقف مثلا ظاهرة صوتية ينبغي على قارئ القرآن أن ينتبه له؛ إذ بها تتضح المعاني، بل تتسع وتتعدد في كثير من المواقع، كما يجتاز عن قبس المعاني التي لا تليق بالله عز و جل⁶، فالوقف أو الابتداء يسهمان في تغيير المعاني وإخراجها عن سياقها، ولهذا

¹ باديس لهوئل، المعنى عند السكاكي مجلة كلية الآداب واللغات، جامعة بسكرة، ع 12، 2013، ص 287.

² صالح سليم عبد القادر الفاخري، الدلالة الصوتية في اللغة العربية، المكتب العربي الحديث الاسكندرية، دط، ص 144.

³ المرجع نفسه، ص 144.

⁴ وهيبه شريط، الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم، دراسة دلالية، ص 54-55.

⁵ ينظر: المعجزة الكبرى، ص 49.

¹ ينظر: وردة عبد الله ونورة بن حسن، الإعجاز الصوتي للقرآن الكريم في ضوء القراءات المتواترة، مجلة الشهاب، معهد العلوم الإسلامية الوادي، مج 08، ع 02،

2022، ص 116.

وجب مراعاتهما، فقد سئل على رضي الله عنه عن تفسير قوله تعالى ﴿وَرَتَّلْنَهُ تَرْتِيلًا﴾، [سورة الفرقان: 32]، قال الترتيل " تجويد الحروف ومعرفة الوقوف"¹.

كما نلاحظ أن أبا زهرة انتبه لظاهرة صوتية مهمة لا تقل أهمية عن الظاهرة السابقة، وهي الهمز الذي كانت العرب تحققه أو تحذفه؛ لما فيه من الثقل، وكذا مناسبة للمعاني، مثال ذلك كلمة " الرأفة التي تعني "أرق الرحمة" ففي القراءة بالإبدال يكون المعنى أكثر توافقاً مع نطق الكلمة، إذ يزيد الإبدال ألفاً من الرقة مع ما يناسب معناها².

وقد انتهى أبو زهرة إلى أن هذا الاختلاف الموجود ليس اختلاف تضاد في المعاني، أو اختلاف تباين في الألفاظ، بل هو في شكل أواخر الكلمات، و المدود والإمالة والنقط، من حيث شكل البنية وزيادة بعض الحروف في قراءة، ونقصها في أخرى³. إذن فالمعاني القرآنية ثابتة لا تتغير، بل إن تنوع القراءات أحياناً يكون توضيحاً للمعاني ومناسبا للمؤدى، وهذا وجه من وجوه الإعجاز الصوتي للقراءات، كما أنه دليل قطعي على صدق النبي صلى الله عليه وسلم.

ومن الموضوعات التي تحدث فيها أبو زهرة عن دور الأصوات في تصوير المعاني، ترتيل القرآن الكريم ترتيلاً موافقاً لما أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم، والترتيل هو: " إرسال الكلمة من الفم بسهولة واستقامة"⁴.

ولا شك أن هذا أمر صوتي بحت يحاول القارئ من خلاله التحكم في الكلمات القرآنية وإخراجها من مخارجها الصحيحة، وقد استشهد في ذلك بقول النبي صلى الله عليه وسلم: (زينوا القرآن بأصواتكم) [رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه وأحمد] متوصلاً إلى أن المقصود هنا هو " القراءة المرتلة التي يلاحظ فيها المآثر من القراءات، وملاحظة المعاني فيها، فيرفع الصوت فيها نسبياً في آيات التهديد والإنذار، ويخفضه نسبياً في آيات التبشير، ويقرأ قراءة المتأمل في الآيات الكريمة الداعية إلى التفكير"⁵.

إذن فالهدف ليس هو التنعيم والتطريب في حد ذاته، وإنما هو تصوير المعاني والدلالات في النفوس قصد بث الخشوع والطمأنينة، ثم إن كلامه السابق إشارة إلى المقامات الصوتية (المقام العلي، السلس، التوسط)، "ولكل مقام من المقامات السابقة بلاغته، وما يصلح منه في موضعه لا يصلح له غيره فيه؛ لتداخل المقام مع الموضوع والمعنى"⁶ فالصوت ليس أمراً ثانوياً كما يعتقد البعض، وإنما له أهمية كبيرة في تصوير المعاني وتجسيدها وتوجيهها، ولهذا حظي علاقة الصوت بالمعنى بعناية كبيرة من قبل الدارسين قديماً وحديثاً، لأن التأثير في المتلقي وإفهامه هو ما يتوخاه المتحدثون، وما يتطلع الأدباء والمتكلمون وإلا كان كلامهم أصواتاً لا معنى لها.

أما الحروف فهي تدخل في نسج التشكيل اللغوي القرآني لاسيما حين تحدث عن وجوه الإعجاز البلاغي، فحروف القرآن تسهم في تامة رسم اللوحات الفنية الرائعة المؤثرة في العواطف والنفوس، من ذلك حديثه عن إعجاز جميع مكونات النص القرآني بما في ذلك الحروف التي تضفي جمالا ونغما موسيقيا، كما أنها تؤاخي بين كلماته، وفي ذلك يقول: "إن كل شيء في القرآن معجز من

¹ المرجع نفسه، ص 116

² ينظر: الإعجاز الصوتي، في القراءات، ص 114.

³ ينظر: المعجزة الكبرى: ص 51.

⁴ فضل حسن عباس، محاضرات في علوم القرآن، دار النفائس الأردن، ط1، 2007، ص 21.

⁵ المعجزة الكبرى، ص 626.

⁷ غربي بن صالح، المقام الصوتي وأثره في تحديد المعنى القرآني، مجلة المعيار، جامعة الأمير عبد القادر، مج 25، ع 55، 2021 ص 14.

حيث قوة الموسيقى بين حروفه وتأحيها في كلماته، وتلاقي الكلمات في عبارته ونظمه المحكم في رنينه، وما وصل إليه من تأليف بين الكلمات، وكون كل كلمة لفظاً مع أختها، وكأنها نسيج كل واحدة قطعة منه تكمل صورته، وتوحد غايته، ومعانيه تجدها مؤتلفة مع ألفاظه، وكأن المعاني جاءت مؤاخية للألفاظ وكأن قطعت لها وسويت على حجمها¹.

ولا يخفى أنه أخذ هذه الفكرة من عبد القاهر الجرجاني الذي تحدث عنها في معرض صياغته لنظرية النظم منتهياً إلى أن الألفاظ تتفاضل من مجاورتها لبعضها البعض: "قد اتضح إذن اتضاحاً لا يدع للشك مجالاً، أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وأن الفضيلة وخلافها في ملائمة معنى اللفظة لمعنى اللفظة التي تليها، و ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ."²

ومعلوم أن هذا التجاور والتآلف يقع عن طريق الحروف نصبا وتوكيدا ورفعا وجرا، وغير ذلك مما يستدعيه ويتطلبه مقام التخاطب، كما تحدث في موضع آخر عن دور الحروف في بناء الفواصل القرآنية مقسما المقاطع إلى قسمين: مقاطع تتحد فيها الحروف مثل قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْعُنْثِيَّةِ 1 وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خُشَعَةٌ 2 ﴾ [الغاشية: 1، 2]، ومن القرآن ما تتقارب فيه المقاطع مثل الآيات الستة الأولى من سورة ق: ﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ 1 بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكُفْرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ 2 أَيْدَاً مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ 3 قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ 4 بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ 5 أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ 6 ﴾ [ق: 1-6]، ثم يخلص إلى أن اتحاد النغم والموسيقى في كل المقاطع تتآلف في حروفها وألفاظها حتى تكون صوراً بيانية تجعل كلام الله العزيز فوق كل منال³.

2.5 الكلمات

تعد الكلمات المفردة إحدى مستويات المعنى في البلاغة العربية، على الرغم أنها لا توصف بفصاحة ولا بلاغة، بل لكونها تمثل ركناً أساسياً من أركان الكلام، ومن ثمة " فإن المدلول الإفرادي للكلمة هو بمثابة الوحدة التحليلية الأولى للمعنى في الكلام"⁴. إن الكلمة المفردة لم توضع لتعرف معانيها الإفرادية والجزئية، بل لتضم وتأتلف مع غيرها وتشكل معاني كلية، وهذا ما بحثه محمد أبو زهرة تحت عنوان " ألفاظ القرآن وحروفه على أساس أنه أحد وجوه القرآن الكريم. وقد أشار إلى موقف علماء البلاغة القدامى من أثر الكلمة المفردة في تحقيق البلاغة، فبينما رأى الجرجاني أن اللفظ والحروف ليس لهما أثر في كون الكلام بليغاً، أو غير بليغ مستدلاً بأن الكلمة قد تروق في موضع ولا تروق في موضع آخر، أما الجاحظ وابن الأثير فقد ذهبا عكس ذلك، فهما يريان أن الحروف والكلمات لها فصاحة عندما تتلاءم حروفها، ولا تتجافى مخارجها، وقد أيدهما بعض المحدثين في هذا على غرار الراجعي

¹ المعجزة الكبرى، ص 99.

² عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ت محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط5، 2004، ص 46

³ ينظر المعجزة الكبرى، ص 316.

⁴ حسن طبل، المعنى في البلاغة العربية، القاهرة، دار الفكر العربي، ط1، 1998، ص 09.

الذي رأى أن الكلمة القرآنية لها بلاغة خاصة بأدائها، بمدّها وغنتها وبأصواتها الموسيقية، فالتألف بينها وبين أخواتها لا يكون في المعاني فحسب، بل في الموسيقى¹.

وبعد إيراده هذين الرأيين المتعارضين ذكر منطلق كل واحد منهما، فالأول لا يلتفت إلى الجزء، بل ينظر إلى المجموع المؤلف، والآخر ينظر إلى الأجزاء والمجموع، بل يرى أن المجموع لا يكون بليغا إلا إذا انتهت إلى الحان مؤتلفة من حروف في كلمات متألّفة، وكلمات في أسلوب مؤتلف في نغماته وترتيله وتناسق بيانه².

وبعد ذكر هذا التعليل جاء برأيه الخاص، الذي سائر فيه جمهور البلاغيين والنقاد، وهو أن الكلمة وحدها من غير أن تكون في مجموعة ليس لها بلاغة ولا مؤدى، فكلمة شجر من غير أن تكون في كلام ليس لها مؤدى، إلا أن تكون في جملة مفيدة تؤدي معنى، وتكون بحروفها وقوتها أو لينها متأخية مع أخواتها من الكلام، ولكن لا بد للكلمة مع الكلمات الأخرى من أن تكون متلاقية في اللحن، فهي وحدها لا تؤديه، ولكن بضمها إلى أخرى يزداد المعنى قوة والنغم جمالا³.

وهنا نرى أنه جمع بين الرأيين، فلا بد أن تأتلف حروف الكلمة أولا، وهذا انسجام جزئي، ثم تتأخى مع أخواتها من الكلمات الأخرى، وهذا انسجام كلي؛ أي أن التألف الكلي بين عناصر الكلام يستدعي وجود انسجام جزئي بين عناصر الكلمة المفردة، والهدف من ذلك كله هو وضوح المعنى وقوته، فحسن اختيار الكلمات ومراعاة الانسجام بينها يسهم في قوة المعنى وجلائه، وهذا يؤثر دون شك في النفوس، وهي غاية يرومها جميع المتكلمين .

ثم خلص إلى أن كل لفظ في القرآن له معنى قائم بذاته وفيه إشعاع نوراني يتضافر مع جملته، ويساعد بعضه في المعاني العامة للأسلوب و العبارات الجامعة، مثال ذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [سورة النحل: 112]

فإذا قرأنا وردنا البصر كرتين وجدنا كل كلمة في حيزها لا تفارقه، مثال ذلك كلمة " آمنة"، فالأمن معناه عدم الخوف من مغير يغير عليهم، أو عدو يساورهم، ولعل ذلك إشارة إلى مكة، أو إلى هذه القرية هي هي، كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ [سورة العنكبوت: 67]، فتجد في هذه الكلمة إشارة إلى نعمة ليست لغيرهم واختصوا بها دون الناس أجمعين⁴.

هنا يمكن القول إن الكلمة القرآنية معجزة بنفسها، ومع غيرها بأصواتها ومعانيها، وهذا ما أكسبها سمات وخصائص مبهرة داخل النظم القرآني؛ فمن مظاهر إعجازها أنك ترى للكلمة الواحدة عدة معاني، كلها صحيحة، وهذه خصيصة لا تتمتع بها سوى الكلمة القرآنية.

¹ ينظر: المعجزة الكبرى، ص 102-106 .

² ينظر: المرجع نفسه، ص 106.

³ المرجع نفسه، ص 106.

⁴ ينظر: ينظر المرجع السابق، ص 109-110

5. 3 الجمل والعبارات

ذكرنا سابقا أن الكلمة المفردة تحمل صورة مجردة قبل دخولها التركيب، فهي توضع للدلالة على مدلول معين، لكن بمجرد دخولها التركيب تصبح متجاوزة لهذه الدلالة المرتبطة بها، فيوظفها المتكلم في جمل مختلفة، مشكلا بذلك أساليب متنوعة يقع بها الفهم والإفهام والإمتاع والإقناع.

وقد اهتم محمد أبو زهرة بدراسة المعنى القرآني في صيغته التركيبية موظفا العديد من المصطلحات نكتفي بذكر واحد منها وهو مصطلح " الأسلوب القرآني" مشيرا إلى أن الكلمة القرآنية ينبثق نورها بالتضام مع غيرها، فهي تكتسب حسناتها من مجاورتها لغيرها منتجة بذلك العديد من الصور البيانية التي تظهر في معنى رائع وكلام مشرق يثير في النفس أحيلا الحقيقة يصورها ويجليها . هذه الأساليب تأخذ أشكالا مختلفة فتكون بالاستفهام تارة، وأحيانا تكون تهديدا تضطرب له القلوب وتفرع، وكل ذلك في أسلوب متناسب مؤتلفة ألفاظه، ومؤتلفة معانيه بحيث يتكون من الجميع صورة بيانية متناسقة في معانيها مؤتلفة في ألفاظها لا ينبو واحد منها في لفظ أو معنى بل يتأخى الجميع¹

وقد ركز أبو زهرة هنا على جانب الإيجاء وقوة البيان والتصوير الذي يتشكل من عملية التركيب ومجاورة عناصر النظام اللغوي بعضها لبعض، والهدف من هذا التشكيل الأسلوبي لا يخرج عن هدفين رئيسيين وهما وضوح المعنى وجزالته و التأثير في المتلقي.

ومن مظاهر عناية أبي زهرة بالمعاني التركيبية تطرقه لعدة مباحث ذات صلة وثيقة به مثل حديثه عن التصوير البياني وما يستدعيه من تأويل، وكذا موضوع الإيجاز والإطناب وأقسامهما². ومعلوم أن الإيجاز والإطناب يرتبطان بالمعنى في صيغته التركيبية، وقد ربط الإطناب بزيادة المعاني قائلا: " الإطناب هو زيادة المعاني لا زيادة اللفظ"³

والمأمل في طبيعة الجمل والأساليب التي ركز عليها محمد أبو زهرة يلحظ أنه اهتم أكثر بالمعاني البلاغية؛ أي المعاني الثانوية متجاوزا بذلك المعاني النحوية، التي تعد شرطا لتحقيق المعاني الثانوية الجمالية، وبما أنه يتحدث عن القرآن الكريم فإن الأمر لا يحتاج إلى إثبات حيث سبقه الكثير من علماء النحو إلى ذلك، بل إنهم اتخذوا القرآن مصدرا للاحتجاج اللغوي وعليه وجب الانتقال للمعاني الجمالية التي يتفاوت الدارسون في فهمها ورصدها.

من هنا يمكن القول إنه إذا كانت العناصر الجزئية السابقة –المستويات- تؤثر في المعنى، واعتبرت عند أبي زهرة وسابقه أحد وجوه الإعجاز القرآني، فإن تأثيرها يكون أقوى وألطف إذا أصبحت تركيبيا، ومن ثمة يكون المعنى أكثر وضوحا واتساقا، ولهذا يعتبر التركيب نصف وجوه الإعجاز.

¹ المرجع نفسه، ص 328 .

² المرجع نفسه، ص 328 .

³ المرجع نفسه، ص 329

6. خاتمة:

بعد هذه الجولة الممتعة يمكن القول إن مفهوم المعنى عند أبي زهرة لا يختلف عما قرره العلماء السابقون، وهذا يثبت علاقة الدراسات الإعجازية بعلوم الدلالة، وكذا رصدنا تنوع مستويات المعنى عند محمد أبي زهرة، وهي المستوى الصوتي، ومستوى الكلمات، ومستوى التراكيب - أي من البسيط إلى المركب -، والتي تتألف فيما بينها وتوجه المعنى، وعليه فإن تطبيقاته على القرآن الكريم يمكن أن تكون منطلقاً لإرساء معالم نظرية لسانية عربية. كما لا يفوتني أن الفت أنظار الباحثين إلى ارتباط هذه الظاهرة الدلالية بموضوع التأويل وقد أشار له المؤلف في غير موضع وبالتالي فهو جدير بالدراسة والتقصي.

7. قائمة المراجع:

- 1- القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم
- 2- أحمد بن فارس، مقاييس اللغة، ت ع السلام هارون، دار الفكر، دمشق، ط1، 1997.
- 3- أحمد مختار عمر، علم الدلالة، عالم الكتب، ط5، 1998.
- 4- باديس هويمل، المعنى عند السكاكي، مجلة كلية الآداب واللغات، جامعة بسكرة، ع 12، 2013
- 5- حسن طبل المعنى في البلاغة العربية، القاهرة دار الفكر العربي، ط1، 1998.
- 6- حمزة بوخزينة، رأي علماء الإسلام في الإعجاز من خلال ثنائية اللفظ والمعنى، مجلة البحوث والدراسات، ع 23، 2017.
- 7- فضل حسن عباس، محاضرات في علوم القرآن، دار النفائس الأردن، ط1، 2007.
- 8- سارة سعد، سيرة حياة الشيخ محمد أبو زهرة وأهم صفاته ومؤلفاته، مجلة بيان الالكترونية 2022/06/19
- <https://tipyan.com/biography-of-muhammad-abu-zahra>
- 9- شكري عزيز ماضي، في نظرية الأدب، دار المنتخب العربي، بيروت، ط1، 1993.
- 10- صالح سليم عبد القادر الفاخري، الدلالة الصوتية في اللغة العربية، المكتب العربي الحديث الإسكندرية، دط، دت
- 11- عبد القادر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ت محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط5، 2004.
- 12- عزمي إسلام، مفهوم المعنى دراسة تحليلية، حوليات جامعة الكويت، ع6، 1985
- علي بن عبد العزيز الجرجاني، معجم التعريفات، ت محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، دط دت
- 14- محمد أبو زهرة، 13- علي بن نابف السحود، مشاهير أعلام المسلمين، وثيقة إلكترونية، Islamway.net/book/16938. المعجزة الكبرى، دار الفكر العربي، القاهرة، دط، دت
- 15- محمد رجب بيومي، النهضة الإسلامية في سر أعلامها دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط1، 1995
- 16- موقع إسلام ويب الشيخ محمد أبو زهرة، الحق على لسان رجل 2002 /10/22
- <https://www.islamweb.net/ar/article>
- 17- غربي بن صالح، المقام الصوتي وأثره في تحديد المعنى القرآني، مجلة المعيار، جامعة الأمير عبد القادر، مج 25، ع 55، 2021
- 18- وردة عبد الله ونورة بن حسن، الإعجاز الصوتي للقرآن الكريم في ضوء القراءات المتواترة، مجلة الشهاب، معهد العلوم الإسلامية الوادي، مج 08، ع02، 2022